دانيال روبس

وتاريخ الاصول المسيحية[1]

بقلم الاب هنري جلابرت اليسوعي

منذ الساعة التي سمع فيها ابرام بن تيراح، في ارض حران، على مقربة من الرها، صوت العلي يهيب به الى هجر بلاده وبيت ابيه، حتى الثامن والعشرين من شباط سنة ٣٨٠، التي شهدت الامبراطور تاودوسيوس في تسالونيكية يصدر القرارات الآمرة باستئصال ما تبقى من الشعائر الوثنية في الامبراطورية الرومانية المتنصرة، طوى التاريخ في ذاكرته نحواً من الفي عام وخمس مئة عام. وإن الوحي الالهي الذي سمع ابرام نغماته الاولى في عالم تتقاسمه الاوثان، كان « يهوه »، بفم رسله العديدين، يعلنه، فيتواضح يوماً فيوماً، ويتعرى من المادية فيه، طوال ما يقرب من عشرين قرناً. وعندما تم ملء الزمان، جاء السيد بنفسه، خلفاً لخدامه: الكلمة تتجسد، المسيح يعلم في فلسطين. انه يموت، فيبعث، فيصعد الى السماء. ولكن حبة الخردل التي بذرها في اورشليم، نهضت من الارض، شجرة باسقة، تظلل العالم الروماني، وتمتد الى البعيد، في حقبة لا تتجاوز ثلاثمائة عام. انه لتاريخ خصيب ذلك الذي يعلمنا اياه دانيال روبس، بعد العديدين غيره، في مؤلفاته الثلاثة: « شعب الكتاب » و « يسوع في زمانه » و « كنيسة الرسل والشهداء »[2].

ونحن نتساءل الان فيما اذا كنا استبقنا الوقت للكلام عن هذه المؤلفات التي ما تزال، في نظر المؤلف، سلسلة غير مكتملة الحلقات. ذلك ان كتاب

---

(1) من محاضرات معهد الآداب الشرقية، نقلها الى العربية الاخ نعمة الله طربيه اللبناني

(2) Daniel-Rops, *Le peuple de la Bible.*
Jésus en son temps.
L'Eglise des Apôtres et des Martyrs.

جديداً ، يتناول الكنيسة حيال العالم البربري ، هو قريب الظهور . وهناك اربعة غيره ، ستظهر فيما بعد ، فاتحة امامنا تاريخ المسيحية ، منذ عهد الكاتدرائية والصليبية والنهضة وحركة لوتار ، حيال عالم لا يؤمن بالله ، حتى هذه الايام التي نعيشها نحن ، حيث يعمل المبشرون ، وقد سمعوا وصية المسيح : « اذهبوا وتلمذوا » ليس على حمل رسالة الانجيل الى اقاصي المسكونة وحسب بل على حفرها ايضاً في قلوب من يجهلونها او ينكرون لها .

وبالرغم من ذلك ، فقد خيل الينا ، اننا نحت هذا العنوان : « دانيال روپس وتاريخ الاصول المسيحية » نستطيع في هذا الحديث ان نرجع الى القسم الذي ظهر الى النور ، من كتب المؤلف ، دون ان نخطئ في ذلك ، لان القرار الذي اصدره تاودوسيوس يسجل ، ولا شك ، آخر حدث في اصول المسيحية التي تتفرع الى ثلاثة اقسام : التهيؤ ، مرور المسيح ، واخيراً إقامة الكنيسة . ولكل من هذه الاقسام كتابه المختص به .

تظهر هذه السلسلة عند فايار (Arthème Fayard) في مجموعته : « الدروس التاريخية الكبرى » التي انفتحت حتى الان « لتاريخ فرنسا » و « نابوليون » للمؤرخ بانفيل (J. Bainville) « وتاريخ انكلترة » لأندريه موروا ، ثم اصدرت مؤخراً «تاريخ الصين» للمؤرخ غروسيه (R. Grousset) . وهذه السلسلة لا تهدف الى كثير الايضاح في موضوع ضيق الحدود ، كما لو كانت اطروحة في السربون ، او الى الشروح الضافية لواحد من الكتب المقدسة ، كما هو شأن المعهد الكتابي في القدس ، لان المسافات الشاسعة من الزمن ، التي تطرقها هذه المجموعة ، تأبى الإغراق في التفاصيل . الغاية منها تقديم مؤلفات في متناول المثقفين حجماً وسعراً ، تشمل جماً من المواضيع ، وتلقي عليها نظرة صادقة واضحة .

واذا كان المؤرخ هو دانيال روپس ، فإننا ننتظر بحق ، انه يجمع الى دقة المأذون العلمية ، فهم الروائي النفساني ، صاحب « سيف النار » و « النفس المظلمة » ، وفهم النقادة الذي حلل الفاجعة الروحانية عند رمبو (Rimbaud) وعند پيغي (Péguy) وعند پسيكاري (Psichari) ، ثم هذه الشفقة

امام الشقاء البشري عند واضع « الشقاء ونحن » ومصدر « بريد الشقاء » ، واخيراً ايمان المسيحي الحق .

ثلاثة مؤلفات اذن : التاريخ المقدس ، وحياة يسوع ، وتاريخ الكنيسة ، كلها تختلف اختلافاً عميقاً .

اما المؤلف الاول فانه ولا شك اصعبها مسلكاً واخراجاً . نعم لقد شهدنا ، في هذه السنوات الاخيرة ، تجديداً شاملاً فيما يخص التوراة ، يمثله اصدق تمثيل الاب لاغرانج ، وهو يعيد النظر في تفهم الكتب المقدسة ، ثم يثأر لكلمة الله التي ادعى التغلب عليها ، باسم العلم المتسرع ، « ناقدون » من كل الطبقات في حين ان المؤمنين — وهنا يجب ان نرى اصبع الله — تركوا جانباً هذا الاغراق في التحفظ الذي تتسم به عصورنا الاخيرة ، وعادوا الى كلمة الله ، جاعلين منها غذاءهم اليومي . ولكن مؤلفات المتخصصين — حتى « تاريخ اسرائيل » لصاحب السيادة Ricciotti ، في جزئيه الضخمين — كانت بعيدة عن متناول العامة . حتى ان التاريخ المقدس الذي يتحتم على كل مسيحي ان يهتم به اكثر من اهتمامه بتاريخ وطنه الخاص ، كان يظهر كأنه تقضى في سحيق العصور ، والخاصة المثقفة نفسها كانت لا تذكر انها تعرفت اليه إلا في ذلك العقد من العمر الذي تستمع فيه الى حكايات السندباد البحري . اما قيمة كتاب دانيال روپس التي لا تعادلها قيمة ، والتجديد العظيم الذي يتراءى فيه ، فهو انه سيغير الاوضاع .

الفضل الاكبر الذي سيرجع الى هذا الكاتب منذ الان وصاعداً هو انه سهل لنا ان نحدّ في الزمان تاريخنا المقدس . فدعوة ابرهيم ليست بعد حادثة اسطورية ، جرت وقائعها في قديم الاجيال ؛ بل انها في حقيقتها الناصعة تتصدى لنا وقد وطأ لها خمسة عشر قرناً من الحضارة السومرية . ان ابرهيم الذي دعاه الرب هو معاصر حمورابي ، الملك المشترع ، الذي بقي قانونه محفوراً على نصب يشوي اليوم في اللوفر ؛ وان ما تخلى عنه ابرهيم يوم هجر أور هو حضارة مزدهرة تظهر لنا الحفريات ما كان لها من رونق آخاذ : « اثاث المنزل جميل معرق ، شراشف من الحرير الخالص ، واثواب ملؤها النقش والتطريز » . . .

« وقبيلته هو لا تختلف بشيء ، في مظهرها الخارجي ، عن هؤلاء الرعاة المديدين ، الراحلين وراء المراعي ، بين المدائن المحصنات ، القائم عليها الكنعانيون». . . وعندما يخرج موسى ويشوع بن نون بشعب اسرائيل من مصر ، ويحلانه بارض كنعان « تكون مقارنة في التاريخ : لان عولس ، حوالى ذلك الزمان ، أدخل الى طروادة حصانه الخداع » . واذا كان لمملكة اسرائيل الحديثة النشوء ، بعد قرنين لا اكثر ، ان تثبت وجودها في العالم ، ويلتفت اليها التاريخ ، على عهد شاول وداود وسليمان ، فما ذلك الا لان مملكة بابل تجتاز مرحلة من اعقد المراحل ، والسلالة الحادية والعشرين في مصر لم تعد ملوكها سوى اظلال ملوك : « فكأن العالم ، اذ ذاك ، تغافل عن تلك الرقعة الصغيرة من آسيا حيث يتابع شعب اسرائيل ما قسمه له الله . . وكأن العناية عن سابق قصد ، جعلت ملوك اسرائيل في عظمة نادرة بينما سواهم من الملوك هم في خذلان ، ليتراأوا لنا اكبر مما كانوا عليه »

ولا يتسع لنا المجال لننوه بكل المقارنات التي تساعدنا على تعيين هذا التاريخ المقدس الذي نتلقنه في تعليمنا المسيحي ، وادخاله في صلب تاريخ حوض المتوسط الذي نتلقنه زمن الدراسة . فعلى عهد عطليا يكون بناء قرطاجة على يد الصوريين ؛ وفيدياس ، وبيريكليس والبارتنون كلها معاصرة لنحميا الذي يجدد بناء الهيكل بعد العودة من السبي ؛ كما ان عزريا يعود الى اورشليم في السنة نفسها التي شهدت موت سقراط .

الى هذه المقارنات بين تاريخ اسرائيل وتاريخ العالم ، يضيف دانيال روبس ، — وهذا مظهر له اهميته الكبرى — مقارنات اخرى باحداث هي في ذاكرة الجميع لانها حديثة في الزمان . فمنذ الصفحة الاولى في كتابه ، لكي يشرح لنا رحيل ابرهيم ، يدعونا لننظر الى هذا الرحيل « كأنه حدث سري ، خفي في جوهره الاصيل ، ولكنه في مظاهره المحسوسة ، له بالنسبة الى شعب الله ، ما كان لرسالة جان دارك ، بالنسبة الى دولة فرنسا » . ومحاولة حمورابي « الفاتح والمشترع ، تشبه بعض الشيء محاولة نابوليون » . ثم انه يدعونا لئلا نتشكك كثيراً من الخدعة التي قام بها يعقوب ليحل محل عيسى اخيه ، « لان فيها الكثير من هذا الدهاء الذي

يحبب عولس الى اليونانيين» اما حادثة يوسف، فانها ولا شك أخاذة بحقيقتها النفسانية: « هذا الشاب الاسرائيلي ، الفتي بالمرونة التي تحببه الى النساء. وتفعل في إقناع الرجال ، يعرف ان يستخدم هذه العطية ليشق طريقاً لنفسه ... فهو شبيه بديزرائيلي كما ان فرعونه شبيه بالملكة ڤيكتوريا» و « شمشون ، اليس يعيد على بالنا ذكر هركول » ؟ انها نغمة مرحة ككثير غيرها من النغمات في كتاب مشوق يبعد عن التجهم والعبوسة. وهناك مقارنات اخرى ، تهيب بنا ، في كلمات قلائل الى التفكير العميق: « منذ اكتمال بناء الهيكل الذي قام به نحميا ، حتى ميلاد المسيح ، تصرمت خمسة من القرون ، ولكن الكتاب المقدس قلما يتحدث عنها . انه يقص علينا بعضاً من الحوادث التي جرت في بدء هذه الحقبة الطويلة من التاريخ ، كما انه يعود ، حوالى اواخر هذه الحقبة ، الى اخبارنا عن اعمال المكابيين الحربية . ذلك يكون شأن تاريخ فرنسا لو لم نكن نعرف منه سوى الحوادث التي جرت على عهد كارلس السابع ، وخبر عن حرب سنة ١٨٧٠ ، انه يترامى لنا ان الذين سطروا حوادث الكتاب المقدس ، احبوا ، عن سابق قصد ، ان يشيروا بصمتهم العميق ، الى انه علينا ان ننظر ، خلال سني الانتظار ، الى حياة الشعب المختار الداخلية ، اكثر منا الى الحوادث الخارجية . »

وهذه الحياة الداخلية ، ساعدنا الرواني الذي اعتاد التحاليل النفسانية ، على تفهمها حق الفهم . فالآباء ، والقضاة ، والملوك والانبياء ، كلهم يحيون تحت قلمه بما كانوا عليه من خصال . فبعضهم يجبهنا بالخذلان ، لاننا كنا نتمثلهم ، عن غير إعمال فكر ، كقادة وقع عليهم اختيار الله ليهدوا الشعب الذي هبط عليه الوعد . فابناء يعقوب هم: « قبضايات لا يُرغب فيهم » ؛ ويفتاح هو رجل تبذته الشريعة ؛ ثم اننا نحس عند دانيال روپس شيئاً من الدهشة حين يخبرنا عن « الاعيب وتحببات شمشون ، القديس الاهوج ». اما الرجالات العظام ، فهناك بعضاً منهم : موسى « ذاك المجهول ، تلك الشخصية الفذة التي تحيي امام عملها الجبار ، وتظهر عظمة لا جاذبية فيها كاولئك الرجال الذين يسمون شعباً من الشعوب ، في صميمه ، بطابع لا يمحى » .

وصموئيل: « قلب من لهب ، ونفس مازها الله ، لها خُلُقٌ مهيب ، وهو يمثل دوراً صعب التمثيل فيقوم وسيطاً بين رجال أول زمانهم ورجال يريد زمانهم ان يولد». وشاول الملك المعجع «هذا الحار العبادة الذي يتمدى شرائع الله ، وهذا الحزوم الذي تهده انشلالات نفسية مفاجئة ؛ هذا المحب اللاوبين الذي يذبح منهم جماً ؛ وهـذا الرجل الذي تتنازعه المشكلات فيحمل في نفسه مأساته المفجعة » .

انها صور ناطقة ، تعج بالعاطفة الانسانية أو بالقسوة المادية ، وتملأ مؤلفات روبس . وقد تكون صورة داود اجمل واحدة فيها : « اننا نعجب به كبطل ، ولا نتمالك عن حبه . ليس كل ما فيه نقياً ، ولكن اذا كان له بعض خصائص القديسين كمحبته اللامتجزئة للاله الأحد ، وثقته بالعناية الالهية ، وايمانه الحار ، فانه لا يسعنا ان نسهو عن وجوده في عصر بربري لم يكن الحكم على القسوة والخديعة موافقاً فيه ما تعودناه اليوم في شرائعنا وفي كتبنا حتى وفي تصرفاتنا كل يوم » — وحريٌ بنا أن نشير عرضاً الى هذه الكلمة : في شرائعنا وفي كتبنا حتى وفي تصرفاتنا ايضاً — . « ولكن كم هو عميق تفهمه وقوته وجاذبيته . . ولا يكاد ينقصه ليكون قريباً منا ومدعاة لحب اكثر ، هذا الضعف الذي يجعل الانسان خاضعاً لثقل المادة الاصلي؛ واذا كان عالي النفس يجد حتى في خطيئته سبباً للألم والندامة والغفران. . . » والى جانبه سليمان « في كل مجده » بين تأنق الذهب والحجارة الكريمة ، لا نجد الى محبته سبيلاً. فميله الى الترف وتهالكه على جمع كل ما يخلب بصره هما دليلان على حداثة نعمته . . . ومع ذلك فقد كان له في تقليد اسرائيل ، مكان مرموق . ان الامم ، في نظرة التاريخ ، تكاد تحفظ ابداً اعجاباً وعرفان جميل لرجال كانوا بحاجة وبال عليها ، ولكنهـا بواسطتهم نالت شيئاً من الرفعة . كذا هي حال نابوليون في نظر الفرنسيين »

هذا القول الاخير يظهر لنا ان كتاب دانيال روبس في التاريخ المقدس ، ليس هو حديثاً عن اشخاص معدودين ، ولكنه تاريخ شعب كبير . « شعب الكتاب » هـذا هو عنوان المؤلف . ودانيال روبس ، في نظرة الفيلسوف

ونظرة المؤمن ، يتتبع خطى الشعب التي كان يقودها الله عبر الامتحانات القاسية وتواضح الوحي يوماً عن يوم . ان القبائل العديدة المنحدرة من صلب يعقوب والمشردة بين المصريين ، عند مصب النيل ، احست بانها شعب واحد فموسى هو الذي يجمعها ويكتلها ويقودها . انه باسم يهوه الذي يعرّف اليهود اليه ، وباسم الشريعة التي يجسدها ، وباسم المبادئ الاساسية التي تتكتل حولها بقية المبادئ ؛ وانه حوالى فكرة دينية لا ارفع ولا اجل ، يشد روابط الوحدة الشعبية جاعلاً من هذه القبائل المشردة التي لا تفتأ تتذمر ، شعباً واي شعب ! واذا ما طواه الموت ، فان جلبة الفتوحات تتعالى : « قعقعة سلاح ، ومذابح وصراخ ، ومدائن تحترق ، وفي مؤخرة هذا المشهد ، حفنة من شجاعات حلوة فردية » . وهنا يتصدى لنا الفيلسوف بهذه الملاحظات : « ان للحروب اليوم صبغة اشد خباثة منها في القديم ، لان الدعايات تغلف الحقد والبغضاء القديمين بمظاهر الفضيلة السامية . ان الشعوب الهمجية لم يكن لها هذا الرياء وهذه الخدعة اللذين نشاهد اليوم ». على ان مأساة كبرى ، ذات ثلاثة وجوه ، تقض مضجع الشعب : القبائل الرحل تتحضر وتستقر ، وهابيل ، ذلك الراعي ، يحس بانه اصبح قابين ، ذلك الحارث ، كما ان الشعب يحس بان كلمة العلي : « بعرق جبينك تأكل خبزك » سوف لا تبارحه من بعد . ومن جهة اخرى فان المنازعات السياسية الناشبة بين القبائل والتي غالباً ما تقود الى الحروب الدامية ، تهدد ابداً وحدة اسرائيل . واخيراً فان الاستقرار في ارض كنعان كان يرافقه بعض الهمود في حرارة العبادة ، هذا الهمود الذي كان يهدد سلامة الامة الاسرائيلية حتى زمان السبي ، والذي كان يدفع بجماعات من اليهود الى معابد الوثنيين للاشتراك بالحفلات الدينية النجسة . اما عظمة هذا الشعب فتقوم بانه ، رغم الهمود في الدين ، لم يقدم يوماً على نكران الله نكراناً كاملاً .

ان شاول وداود ، في حقل السياسة ، وحدا الشعب في مملكة قائمة ، فاعادا الصلة التي كانت تراخت حلقاتها بينها وبين موسى النبي . اما في الحقل الديني فان اللاويين والانبياء كأشعيا وإرميا وان الكتبة والفريسيين الاوائل

نجوا جميعهم من الدمار كل ما كان باستطاعتهم ان ينجوه.» ان قيام الشعب المختار كأمة كان متوقفاً على ايمانه وعلى هذا التوحيد الذي حافظ عليه محافظة الاسد، حتى ان هذا الشعب لو لم يحافظ على ايمانه القويم لكان الزمان طوى ذكره اليوم كما طوى العمالقة وملكة آدوم... انه لمن المذهل حقاً ومما يفوق تفهم العقل ان هذه الامة الحقيرة عدداً مرت بها العصور فهزئت بالعصور». ودانيال روپس يحاول ان يستخلص الاسباب التي جعلت هذا الشعب يصمد على الزمن فيقول: ان لذلك سبباً واحداً هو ان الله حافظ على شعب كان يعهد اليه، من حين الى حين كنز الوحي الغالي فينتبه روحياً بالتعمق في الحقائق التي أوحى بها اليه وفي اضافته اليها حقائق ثابتة جديدة» فابرهيم هو الذي يركز حجر زاوية التوحيد، وموسى هو الذي يجسد الشريعة ويعلن المبادئ الاساسية. والانبياء هم الذين يحورون هذه الفكرة السائدة في الشعب، القائلة بان الاثم الذي يقترفه احدهم يقع على الشعب كله، مقرين بدلاً عنها فكرة المسؤولية الشخصية التي تقول بانه على كل انسان ان يعطي حساباً عما صنعه هو لا سواه. اما مشكلة الخطيئة فانها تصدت اذذاك للضمير اليهودي باكثر قوة ووضوحاً: فالخطيئة اصبحت، في عرفهم، جرحاً ألماً ولطخة تنال من نقاء النفس، على انه أعطي لهم ان يعالجوا هذا الجرح بسعيهم الجدي وراء استرجاع النقاء المفقود، وبأعمال التوبة والتكفير. وفي الوقت نفسه كانت الفكرة القديمة التي تدور حول المكافأة، قد تحورت تحوراً كلياً لان اليهود في البدء كانوا يحسبون ان الله يكافئ الاعمال الصالحة في هذه الارض، ولكنهم غيروا وجهة تفكيرهم بعد ما قاسوه من الشقاء في ارض السبي ومن العذاب في العودة، فلم يعد الموت في عرفهم نهاية للانسان بل اصبح طريقاً، وعرفوا ان الانسان يحاكم بعد الموت وينال الحياة التي يكون قد استحقها باعماله على هذه الارض.

وهناك صعوبة اخيرة لم يقدر الاسرائيليون على تذليلها: اذا كان الانسان الذي ابتلته الخطيئة الاصلية بجراحها الاليمة يعجز بقواه الذاتية وحدها عن استكمال جهاده طلباً للابرار المضاعة، فكيف يمكنه التفلت من هذا التضاد

المستعصي: عقل يهدينا سواء السبيل، ونفس تعجز، وحدها، عن متابعة سيرها في هذا السبيل، وتفتقر الى وسيط يجيئها من العلاء . . . كان اسرائيل في انتظار محوم لهذا الوسيط، وهو يحس بقرب مجيئه ولكن هذا الاحساس كان، على الزمن، يظهر شتاتاً على افواه الانبياء ولا يتراءى بوجهه الاصيل الوضاح الا ساعة يتم تجسد السيد المسيح الذي يبلغ بالوحي، في رسالته الالهية، حد الامتلاء وحد الكمال . وكان اليهود يعرفون ان الوحي لم يكن قد اكتمل بعد لاننا نراهم، وهم تحت أسرة هيرودس وروما، ينتظرون المخلص العظيم . وعليه فإن كتاب دانيال روپس الثاني ينفتح على هذا المشهد: « شعب مذلل يتضرع »

ان كتابة حياة المسيح — ثلاثون سنة لم تتعدَّ بقعة صغيرة من الارض — تبعد كل البعد عن استعراض الفي سنة من التاريخ تقضي معظمها في رحيل لا يستقر . واذا كان تاريخ شعب الكتاب عملاً دونه صعوبة الإخراج نظراً لما يهدف اليه المؤلف من الحفر في الجديد، فإن تواريخ حياة المسيح تكاد الا يحصيها عدّ، وبينها ما حصّل الشهرة الواسعة، وقد عددها دانيال روپس كمصادر لكتابه: لاغرانج، غرانميزون، لوبروتون، واخيراً موریاك الذي يقال فيه: « انه القى على تفهم نفسية الانجيل أضواء لا أجمل ولا اسطع » . اما الدراسة التي ستعرض لها الآن حول « يسوع في زمانه » فانها ستظهر لنا بوضوح، شأنها في التاريخ المقدس، سعة اطلاع المؤرخ، وموهبة التحاليل النفسانية في الروائي، ورحابة نظرات الفيلسوف، وايمان المؤمن الحار .

« في زمانه » . انه زمان نعرفه جيداً « حيث السلام الروماني » يرف على الابيض المتوسط . وأول ما يسلك بنظرنا هو الشعب الاسرائيلي المنحني تحت أسرة الغريب، والمضمر له عداوة لا تهادن ؛ غير انه شعب الغايات لان روح التفرقة تعمل في احشائه . فهناك الصدوقيون ارباب الفكر، الشبيهون باولئك الذين وصفهم برنانوس، والمنقبون ابداً عن الخطأ الطفيف . وهناك الفريسيون الذين حافظوا على وديعة الوحي محافظة الامين، وصمدوا دائماً روح مقاومة حيال الوثنية اليونانية، على انهم، في غمرة كبريائهم الجامحة، وفي عبادة

الحرف التي تكرسوا لها منذ ثلاثة قرون ، اصبحوا وكأنهم مومياءات . فاولئك وهؤلاء لم يتفهموا ، في معظمهم ، حقيقة رسالة المسيح التي انفتح عليها البسطاء والسذج الذين لا عهد لهم بدقائق الشريعة ، الذين هم « كوخرة موحلة » هدف لاحتقار الاريستوقراطية الصدوقية وارباب الدين .

هذا هو الأمر الاول الذي يلفت النظر . اما في عرض الكتاب « فإن الجندي الروماني يتمايل امامنا بطاسته الحديدية ومعطفه الارجواني » . ولكي يساعدنا المؤلف على تفهم أوضاع بيلاطس الذي يحكم اليهودية المعادية له بواسطة شرذمات قليلة من الجنود الوطنيين ، يرجع بنا الى كيليغ والى سموم برومفيلد ، فنشاهد الامراء الهيرودوسيين يتمايلون كبرًا وليس لهم من سلطان حقيقي ، كأن واحدهم مهرجا هندي . واذا ما رفض الكهنة ، صباح الجمعة العظيمة ، ان يدخلوا الى دار الحاكم تخوفاً من انهم يتدنسون قبل اكلهم الفصح ، « نتصور جلياً ما يمر ببال حاكم احدى المستعمرات ، وقد اضطرب لرؤيته الجموع تهيج في العاصمة ، وعلم بان معضلة ملتبسة الحلول ، معقدة ، عليه ان ينظر بها لا في داره على هدوء ، ولكن في الشارع بين جلبة الثائرين » . اما غسل بيلاطس يديه تبرؤًا من هذه المشكلة اليهودية ، فهو شبيه بما يأتيه رجل اريستوقراطي مستعمر حيال رجل « وطني » . ويضيف دانيال روبس هذه الملاحظة : « لتتمثل احد الحكام وقد جاءته قبيلة من الزنوج برجل ضعيف الادراك ، تشكوه بانه يقوم باعمال سحرية ، ويطمع في الملك . اذ ذاك يتراءى لنا بسيطاً معقولاً ما كنا قد حسبناه خفة لا تغتفر ، وجبانة سافلة ، وظلماً صارخاً . . . او بعبارة أجلى ، ان امثال هذا التصرف ليست بنادرة الوقوع »

ويسهل علينا ان نشير هنا من جديد الى درس شخصيات عديدة ، منها تناصب يسوع العداء ، ومنها توالية كل الموالاة ، وكلها تضج بالحقيقة الانسانية .

« يسوع في زمانه » هو عنوان كتاب ، توقفنا الآن لدى كلمته الثانية : « في زمانه » . وانه لحري بنا ان نتوقف هنيهة لدى الكلمة الاولى : « يسوع »

فنعرف ان « شعب الكتاب » لم يعد هو موضوع الدراسة الاساسي ، بشخصياته المتعددة التي ارشدته وقادته ، ولكن الشخصية الفريدة الفذة التي هيمنت على هذا الكتاب ، هي شخصية السيد المسيح ، ورمتهُ السرية الأخاذة .

ويجهر دانيال روبس بان جوهر الدراسة يكمن عبر اللغز الذي يجبهنا به هذا الرجل الشبيه بنا الذي يخضع كل حين بكلماته وحركاته ، قوى عديدة فائقة . ان هذا الوجه الذي جسده الالم ينكشف عن وجه الله . انه اله حق وانسان حق . اما كلمة الصلاة فانها تبهر الصعوبة النفسانية الكلية التي تتصدى لنا في هذه الدراسة ، لاننا ساعة نجدّ في التطلع الى ملمح انساني في طبيعة يسوع ، تأخذنا بهرة الاله المتأنس . ورغم هذه الصعوبة الآمرة ، فان دانيال روبس يحاول ما استطاع اظهار هذه الصورة اللاممكنة . لقد كان لزاماً علينا ان ننقل في هذا الصدد صفحات وصفحات ولكننا نقتصر الان على قراءة صفحة واحدة، منها : « انه لخطأ فاضح ان نتخيل يسوع مسمراً ، قائماً دون حراك ، صنماً من الجص ، لا ينفحه بالحياة اي شعور . فان اشخاصاً كموسى من العهد القديم ويوحنا المعمدان في العهد الجديد يظهرون دفعة واحدة ، بيد ان حياة المسيح الانسانية هي غمرة من بسمات ، وقول المسيح : « دعوا الصبيان يأتون الي » تصحبه بسمة لا الذ ولا اطرى ! وهناك احياناً شيءٌ من الهزء اللاذع كما نتحققه من الحوار الذي دار حول الجزية المتوجبة لقيصر : « اعطوا ما لقيصر لقيصر » هو كلام يتجلبب بسخرية عظمى ، وطريقة استهزائية ترد الى المهاجم سؤاله المبطن بالجائل . وهناك ايضاً غضبات ، غضبات مقدسة سامية ، تغلي وتتفجر ساعة تسأم غيرة الله الآكلة من جنون البشر وتجاهلهم القصدي . فيسوع اذ ذاك هو سليل هذه الأمة العنيفة التي اطلعت الانبياء والتي حملت يسوع على الغضب الشديد ، وعلى العنف لأسباب ليست من الروحانية بشيءٍ فاذا ما انهال بسوطه ضرباً على الباعة في الهيكل ، وفضح ببلاغته الصارمة خفايا معلمي اسرائيل وفريسيه ؛ واذا ما قال لسفراء الملك انتيباس : « قولوا لهذا الثعلب » ، فانما نتحقق فيه انه انسان يجيش الدم تحت اظافر يديه ، ان محبة دانيال روبس لمعلمه الالهي تنبع من كل سطر عبر كتابه الرحيب . وهذه

المحبة هي التي اهابت بأحدهم الى ان يقول لي احد الايام : « انني عندما افرغ من قراءة هذا الكتاب ، اشعر بحاجة ملحة في الى اخذ مسبحتي والشروع بالصلاة» — لا اظن ان واضع هذا الكتاب كان يرمي الى ابعد من هذا الثناء .

والان يجدر بنا ان نشير عرضاً في مجموعة المكتبة المسيحية للتاريخ ، الى مؤلف صغير ينطوي على « اناجيل العذراء » . يقسم هذا الكتيب الى ثلاثة اقسام : في القسم الاخير منها اربعون لوحة علّق عليها المؤلف وكلها مختصة بالعذراء ؛ وفي القسم الثاني نقرأ المقاطع المنزلة والمحرفة حيث يتراءى لنا العهد الجديد بعية الذين ادعوا تكميله — والذين اعطي لهم ، بعض الاحيان ، جمع شتات من التراجم الحقيقية — والتي تدور حول حياة العذراء . اما القسم الاول ، وهو اقصرها لأنه لا يتجاوز المئة من صفحاته خُطت بحرف عريض ، فانه يتساءل : « كيف نتعرف الى العذراء » ؛ ولكي يجيب عن هذا السؤال فانه يضعها ، هي ايضاً ، « في زمانها » مع اثاث منزلها وثيابها « الصوفية ايام الشتاء ، والقطنية سحابة الصيف ، والمنديل التقليدي على الرأس » ، . . . اما حياة العذراء فكان قوامها استقاء الماء ، ونقل العجين ليخبز في الفرن . حتى اذا طلع نهار السبت فانها تتوقف عن العمل نظير جاراتها اليهوديات ، متفرغة لعبادة العظمة الالهية . . . وبالجملة ، « فانها حفنة من مستندات » ، « فتاة يهودية نكرة » ، « اكثر الناس دعة وتواضعاً » . اما هذا التعطش الى طهارة ملأى ، الذي نحسه في حنايا الضلوع وقد اضاء الطفولة فينا ، وتنكرت له الحياة يوماً بعد يوم ، فانه هو الذي نلمسه منذ اكثر من خمسة عشر قرناً ، في فتاة البشارة الصغيرة ، ان الجاذبية في احدى عذارى جيوتو تتجاوب اصداؤها في نفسنا مع شيء لم تمسه الحواس ، سابق لكل خطيئة او هفوة ، مع هذه البقعة السرية التي نلمسها فينا بعض الاحيان — كانما هي ماء عميق ننظر اليه من خلال الاعشاب — حيث الكمال المطلق يتمثلنا من التناقضات ، وحيث النقاء الكلي يصبح مرادفاً للمعرفة وللحب .

ويجب التلميح خصوصاً ، في حياة يسوع ، الى الذوق السليم في الناقد الفني ، سواء أشرح لوحة او وصف مشهداً .. ولكن لقد حان وقت الانتقال الى المجلد الثالث من مجموعتنا : « كنيسة الرسل الشهداء » .

قد تتطلب قراءة هذا الكتاب عناء اكثر مما يتطلبه الكتابان السابقان . اما السبب في ذلك فانما هو غزارة المادة . أجل ان التاريخ المقدس كان يتناول حقبة من الزمان هي ست او سبع مرات اكثر من التي تناولها هذا الكتاب ، على انها كانت مغامرة عشيرة صغيرة ، أو قل مغامرة شعب ضئيل في افق محدود . اما ما يتصدى لنا الان فانما هو ملحمة الصليب التي لا تفتأ ، خلال ثلاث مئة عام ، تكتسح العالم .

وهناك ايضاً اشتباك ثلاث مدنيات : اولاهما اسرعت الى الزوال : هي اسرائيل الذي اطلع الخلاص وشارف على الاضمحلال . وساعة تمحي في ظلال الهيكل المحترق تلك الجماعة اليهودية – المسيحية الصغيرة ، تقوم الكنيسة – خصوصاً بفضل القديس بولس – بدمج الماضي في المستقبل وحدة عجيبة وبادخالها الى رومة ثورة الصليب .

وماذا يقول عن رومة اذ ذاك ، عن سطوتها واستقرارها ؟ « لا الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، ولا امبراطورية نابوليون ، ولا الكومنولث البريطاني عهد الملكة فكتوريا ، كانت اكثر سطوة وتوازناً واستقراراً من رومة اذ ذاك . » « فريدة في نظامها ، وحيدة لا تغلب ، هذه هي الامبراطورية وليدة اللبؤة ، باقية البناء على الدهر » . . . ويتابع دانيال روپس قائلاً : « اذا تطامنا الى حقارة الكنيسة الناشئة حيال هذا المارد الجبار ، فانه من الحق ان نتصور تطاحناً بين الاثنين لا تخرج منه المسيحية متداعية محطمة »

ومع ذلك فقد حدث العكس . اما كيف ذلك فهاك ما يقوله روپس : « ان اقدام العساكر مشت في ركابه » كذا قال پيني مردداً كلمة اوريجانوس الذي كتب سنة ٢٢٠ هذا القول : « لان الله اراد ان يجعل في جميع الامم استعداداً لكلام المسيح ، شاءت عنايته ان تخضع هذه الامم

لامبراطور روما العظيم » وفعلاً لقد كان السلام الروماني ، والطرقات ، والبحر المطمئن ، واللغة اليونانية المتداولة من الفرات الى اعمدة هركول ، كل هذه وسائل ثمينة فعالة لانتشار الانجيل . وفي الاخلاق ايضاً يتسرب الكذب الروحي ، لأن آلهة الاولمب لم تعد سوى اظلال الهة ؛ وفي الجسم الاجتماعي جرح العبودية الدامي وتناثر القيم القديمة : كلها مشاكل هامة جاء الدين المسيحي الجديد باجوبة عليها تقنع العقل . . . ان التنافر بين معتقدين في العالم يزداد قوة يوماً عن يوم . هاهم الشهداء الالوف ، يسقطون ضحية شعب غافل ، ضحية الطاغية نيرون . وعلى عهد « الانطونيين » كان للاضطهاد سببان : اقرار السلام ، وتهدئة خواطر الشعب . ولكن « لا يكاد ينتهي القرن الثاني حتى نشاهد العالم الروماني مسرعاً الى الفناء . واما الطابع الذي اتخذته الاضطهادات الرسمية المنظمة فله قيمة اشارة : «ما من دولة تكلف نفسها عناء عراك منظم إلا اذا كان ثمة عدوّ مخيف » . ولهذا فإن آخر اضطهاد كان افظع الاضطهادات « في آخر مراحل الانهيار ، عندما تتلاشى مميزات القيم الادبية . نرى عهداً يطلع او مجتمعاً يحلو له ان يسكر من خمرة العذاب الجهنمية . ويزيد دانيال روپس ، وهو الفيلسوف الذي تقصى جروحات عهدنا هذا ، يزيد هذه الملاحظة المؤلمة : « ان القرن الرابع لم يكن له ان ينظر الى مشاهد كهذه » وسرعان ما ارتمشت يد الجلاد فطلع قسطنطين من الحروب الاهلية بعد انهيار « الحكم الرباعي » ورفرف الصليب على العالم كله . « رجل القدر كما قيل ، صاحب قلب طفل عبقري ، وجه غريب في هذه المرحلة الفارغة حيث التاريخ يعمل على تغيير اوضاعه ، ذاك هو قسطنطين يحطم فوق عظمة روما القديمة بقايا من جمال غروب لماع ، وخريف لن يلبث ان يموت . ولكنه كان للكنيسة مبشراً ببزوغ فجر جديد ، فجر الاستقرار . » ولهذا فإنها قد تناست له ضلالاته وجرائمه ، واحيت اسمه الجميل على مر الدهر .

ان الوقائع التي تصدينا لها ليست سوى مظاهر انتشار المسيحية البعيد : اما الجوهر فليس هناك : انه يكمن في تلك القيم المشعة من التضحية والصلاة ، في هؤلاء الشهداء الذين طالما حدثنا عن بطولتهم ، في جهاد آباء الكنيسة —

كم من شهيد بينهم وقع تآليفه بدمائه – وعملهم على تبديل المجتمع القديم ، عامدين الى ما حسن من الماضي ، والى معطيات الوحي ، يحكونها اساً واحداً ترتكز عليه مدنية الغد. هنـاك مؤلفات ايوستينيانوس واكليمنضوس الاسكندري ، واوريجانوس ، وايرونيموس ، تمكن دانيال روبس من الإبانة بوضوح عن جوهرها الاصيل. وقد قادنا عبر المجادلات اللاهوتية المنيفة ، طوال القرن الرابع ، التي تصدت لعقائد الدين « بكل ما في العقل من قوى تهاجم » ـ عقل آريوس الذي يتنكر للسر كما انه يتنكر لاله يتأنس.

❁

لقد حان لنا ان نقول كلمة الختام ، فهل نجزم بأن تلك الصفحات المتجاوزة الألفين لم تعرف هفوة من الهفوات ؟ انه امتداح مغرض لو عرف به المؤلف لرفض التصديق. فهناك احياناً بعض شطحات للقلم ، كزعمه مثلاً بان مسيحيي الرها اضطهدوا لانهم كانوا مناصرين لتدمر ، والصحيح هو ان اضطهادهم تأتى عن حفظهم العهد لسلالة « الاباجرة » المحلية ، التي خلعتها رومة من الحكم لارتدادها الى الدين الحق. وزعم ايضاً أن لوسيان هو من سميساط في حين انه انطاكي. ثم قال بأن مسيحياً من « ازمير » معاصراً للقديس بوليكاربوس ، قد صفع الحاكم ؛ اما الحقيقة فهي ان هذا المسيحي اراد ان يتحدى الوحش الضاري كي يسرع في افتراسه . على ان الانتقاد الأهم الذي توجه الى المؤلف في التاريخ المقدس ، هو التجاؤه الى مقارنات بالية ، ليشرح علمياً ، على حد قوله ، اجتياز البحر الاحمر او اجتياز الاردن. كما انه عمد الى اثباتات لا مبرر لها تقول بان الابجدية كتبت أولاً في ثمانين حرفاً ، وتحدرت الى خمسين فستة وثلاثين.

جميع هذه الانتقادات ، اذا قيست بمجموعة ما كتبه دانيال روبس ، تغيب كقطرة في خضم. ماذا ، انقول الآن بأن هذه المجلدات الثلاثة تشير الى تفاوت في الإخراج بين المجلد واخيه ؟ ـ أجل ان طابع التاريخ المقدس ، هو ابعدها في الابتكار الشخصي ؛ على ان حياة يسوع ، تخرج لنا شخصية المعلم لا أجل

ولا أحب ، وتعيد اليها ، بشيء من الطبيعة التي لم تنل بعد ، مسحة العصر الذي عايشت فيه . اما تاريخ الكنيسة فقد كانت له اعجوبة الوضوح الكلي في عمل يسوده الغموض .

هذا ، واننا لنغبط النفس لان هذا الكاتب الشهير ، الذي زرع مؤلفاته بين الوف الأكف ، عرف ان المسيحي المثقف يتحتم عليه التبحر بتاريخه ، واعطاه ، ثمرة لجهوده الجبارة ، ومن صميم الفؤاد ، انجع الوسائل الى هـذا التبحر الخصيب .